التعدد اللهجي وسؤال تعلم الفصحى داخل الوطن العربي

الأستاذ المشارك. التهامي الحايني

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين/ الرباط

The Dialectal Variety and the Tendency Towards Learning Standard Arabic Inside the Arabic Homeland

Associated Prof. Al-Tuhami Al-Hayni

Al-Jahwi Center for Educational Posts / Al-Rabat

ahami.70@gmail.com

Abstract

The Arabic linguistic atmosphere is characterized by a variety of dialects which obviously affects the standards Arabic. The latter is connected to a huge heritage which is not naturally required but learned. The minimal level represents the native language which naturally required. The dialect formed due to the various geographical locations comes next to the language and is studied by dialectology.

يتميز الوضع اللغوي العربي بتعدد لهجي ولغوي واضح، وهذا ما ينعكس على وضع اللغة العربية الفصحى التي توجد في وضع لغوي تجاه لهجات متنوعة، وعربية وسيطة وتجاه اللغات الأجنبية. فإذا كانت الفصحى رفيعة المستوى دقيقة التقعيد ترتبط بتراث ضخم لا يكتسب طبيعيا بل يتعلم، ويختص بالوظائف الكتابية، فإن النمط الأدنى يمثل اللغة الأم المكتسبة فطريا وغير المقعدة[1] تختص عادة بالوظائف الشفاهية (فرستيغ ،٢٠٠٣:٢١٦ والفلاي،٩٦: ٢٥-٢٧-٢٩). وبناء عليه فإن اللهجة هي في مرتبة تالية للغة المعيار لكون هذه الأخيرة تتجلى في تنوعات لغوية تعرف باللهجات تختلف حسب الموقع الجغرافي، ويعنى بدراستها علم اللهجات Dialectology (Chambers And Trudgill ; 98: 3) التي تعرف في إطاره بكونها المستوى الأدنى أو الشكل البسيط للغة المعيار تنطبق على كل الأشكال المنطوقة التي ليست لها شكل مكتوب3 :98; Chambers and Trudgil)).

من هنا فاللهجة جزء من اللغة تحيل على تنوعات لغوية على المستوى الصوتي والنحوي والمعجمي.

يعكس مصطلحا الدونية والعالية موقع كل من النمطين اللغويين الفصحى والدارجة داخل العشيرة اللغوية، فالنمط الدوني أو الأدنى ليس عموما محل احترام كبير في هذه العشيرة، وغالبا ما تشير التسمية التي يطلقها الناس على هذا النمط إلى موقعه ومكانته. وعلاوة على التسمية، فقد ينعت الناس هذا النمط بنعوت تحقيرية مثل السوقية والمحرفة (فرستيغ، ٢٠٠٣:٢١٦)، حيث وصفها عبد الواحد وافي بكونها لغة فقيرة كل الفقر في مفرداتها ولا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي، وهي إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب في قواعدها وأساليبها ومعانيها وألفاظها (وافي، بدون تاريخ: ١٥١). وعلى الجانب الآخر، فإن النمط العالي نمط محترم ورفيع لكونه يمثل لغة التراث الثقافي والديني (فرستيغ، ٢٠٠٣: ٢١٦)..

لقد أقام فرغسون في مقاله "الازدواجية اللغوية" تمييزا واضحا بين نمطين لغويين منفصلين، ففي تصنيفه هناك علاقة تخارجية بين كل من النمطين اللغويين المشتركين في علاقة الازدواجية اللغوية، وعلى المتكلم أن يختار نمطا من النمطين دون آخر في عملية تحويل للشفرة لغوية، وفي حقيقة الأمر لا ينزع إلى نمط دون آخر، بل ينتقل بين أنماط لغوية لا يمثل فيها النمط العالي والنمط الدوني طرفي نقيض. وفي مثل هذه الحالات لا تعتبر عملية تغيير الشفرة اللغوية عملية اختيار نمط بعينه، ولكن المتكلم يضع ملفوظه على خط من التنويعات اللغوية، وفي تلك العملية تلعب العوامل السوسيوثقافية دورا كبيرا في اختيار موضع الملفوظ على خط التنويعات هذا (فرستيغ، ٢٠٠٣: ٢١٨)، ومن البديهي أن نتصور أن اتساع خط التنويعات يختلف من شخص إلى آخر بحسب قدرته اللغوية.

١- الدراسات المرتبطة بالنمط اللغوي الأدنى (اللهجة الدارجة أو العامية) غالبا ما أنجزت من قبل باحثين لغويين أجانب، حيث يطغى عليها الجانب الوصفي الهادف تحديدا إلى عرض هذه اللهجات للأفراد الذين لا يتحدثونها كلغة أم.(الفلاي ٩٦: ٣١)

لقد بذل العلماء مجهودات مهمة في تقسيم خط التنويعات الواصل بين الفصحى والدارجة، والوقوف على الأنماط الوسيطة، فتجدهم غالبا ما يشيرون إلى نمط وسط بين الطرفين دعوه اللغة الوسيطة أو لغة المثقفين، ومن المفروض أن تكون تلك اللغة شكلا من العربية الفصحى لا يستخدم علامات الإعراب ويتبع أنماط نطق اللهجة (فرستيغ، ٢٠٠٣: ٢١٨). ومن أفضل التقسيمات التي أدخلت تعديلات على طرح فرغسون تقسيم بدوي ١٩٧٩ الذي أجراه في معرض دراسته للموقف الاجتماعي اللغوي المصري، وانتهى إلى وجود خمسة مستويات لغوية منفصلة لكل مستوى منها سماته المميزة التي تنفصل عن باقي المستويات، وهي كالتالي: (فرستيغ، ٢٠٠٣: 219).

جدول المستويات اللغوية عند بدوي

١- فصحى التراث: تستخدم في قراءة القرآن فقط.

٢- فصحى العصر: تستخدم في الكتابة والحديث في المواقف الرسمية.

٣- عامية المثقفين: تستخدم كلغة حديث المتعلمين الرسمية.

٤- عامية المتنورين: تستخدم كلغة حديث المتنورين.

٥- عامية غير المتنورين: تستخدم كلغة حديث الأميين.

يعيش العالم العربي وضعا لغويا ازدواجيا، كما يعيش وضعية الثنائية اللغوية بسبب وجود لغة رفيعة تتجلى في اللغات الاجنبية (فرستيغ، ٢٠٠٣: ٢٢٨)، وهذا الوضع اللغوي يدفع المتكلمين إلى التغيير الشفري للخطاب، وهي حالة واردة في السياقات الثقافية والاجتماعية، لأن من يستمع إلى أحاديث الناس يستنتج وجود خلط منظم فيه للفرنسية أو الانجليزية بالعربية أو غيرها من اللهجات المحلية.

بقي أن نشير بخصوص الوضع اللغوي بالعالم العربي إلى تواجد لهجات محلية مختلفة بحسب البعد بين المناطق، إذ كلما اتسع التباعد كلما اتسعت الاختلافات، وهذا الطرح يقودنا إلى التأكيد على أن كل لغة معيار إلا وتتفرع عنها مجموعة من اللهجات كما هو الشأن بالنسبة للهجات العربية التي يكتسبها الطفل في بيئته اللغوية دون أن يحتاج في ذلك إلى معلم، وهي أول ما يتكلم به باعتبارها لغة الخطاب اليومي، وهي فوق ذلك تركيب كلامي ينتمي إلى أصل لغوي معين، يتميز عن غيره من مشتقات ذلك الأصل اللغوي في النطق والمفردات وبعض التراكيب. وقبل الحديث عن انعكاسات الازدواجية اللغوية على المتعلم المغربي سنعرف الازدواجية اللغوية مع تحديد خصائصها منطلقين في ذلك من الأدبيات التي تناولت هذه الظاهرة بالشرح والتحليل، لنعرج بعد على رصد وضع الفصحى داخل المشهد اللغوي المغربي من خلال عقد مقارنة بين اللغة العربية الفصيحة والدارجة المغربية.

١- خصائص ظاهرة الازدواجية اللغوية

١-١- تعريف الظاهرة

تلجأ الكثير من المجتمعات اللغوية إلى توظيف نمطين أو أكثر من نفس اللغة تحت ظروف ومواقف مختلفة، والمجتمعات العربية الأخرى وبعض المجتمعات الأوربية التي تعيش وضعية الازدواجية اللغوية، حيث تستعمل نمطين لغويين يتمثل أولهما في اللغة الفصحى وثانيهما في اللغة الدارجة أو اللهجة المحلية. فما المقصود بهذه الظاهرة اللغوية؟.

إن أول من تحدث عن ظاهرة الازدواجية اللغوية هو اللغوي الألماني كرمباشر (Krumbacher) في كتاب له صدر عام ١٩٠٢ (الفلاي، ١٩٩٦: ١٧)، حيث حدد فيه طبيعة هذه الظاهرة وأصولها، وأشار بشكل خاص إلى اللغتين اليونانية والعربية. لكن يرجح في أدب هذه الظاهرة اللغوية أن العالم الفرنسي وليام مارسي (William Marcais١٩٣٠) أول من ابتدع المصطلح بالفرنسية (La diglossie) (الفلاي ،١٩٩٦: ١٧). وفي مقالة تعد من أشهر ما كتب عن الموضوع قام اللغوي الأمريكي فرغسون (Ferguson 1959) بنقل هذا المصطلح إلى الأنجليزية، إذ درس أربع حالات لغوية تتميز بظاهرة الازدواجية اللغوية وهي: العربية واليونانية والألمانية السويسرية، واللغة المهجنة في هايتي. كما قدم تعريفه لهذه الظاهرة بقوله إنها "حالة لغوية ثابتة نسبيا، يوجد فيها فضلا عن اللهجات الأساسية (التي ربما تضم نمطا أو أنماطا مختلفة باختلاف الجهات) نمط آخر في اللغة مختلف، رفيع التصنيف (وفي غالب

الأحيان أكثر تعقيدا من الناحية التركيبية) رفيع المستوى، وهو أداة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت. ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمي، ويستعمل في الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية (الفلاي، ٩٦: 21.)

وقد دعا فرغسون هذا النمط "الرفيع" وهو الفصحى، وقارن استعماله بالنمط اللغوي "الوضيع" وهو النمط الدارج، وأعطى نموذجه التالي لاستعمالات كل منهما لتوضيح الفروق المذكورة بينهما(336–335 :72; Giglioli).

الحالة	عال	أدنى
١– الخطب في المسجد (أو الكنيسة)	×	
٢– التعليمات للخدم والعمال والكتاب		×
٣– الرسائل الشخصية	×	
٤– الخطب في البرلمان، الحديث السياسي	×	
٥– محاضرات الجامعة	×	
٦– الحديث مع الأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة		×
٧– إذاعة الأخبار	×	
٨– التمثيليات الاجتماعية في الإذاعة		×
٩– افتتاحية الصحف، أخبار الصحف والعناوين	×	
١٠– التعليق على الكاريكاتير		×
١١– الشعر	×	
١٢– الأدب الشعبي		×

وبعد سنوات قليلة، قدم كي (Kaye 1972) تعريفا للازدواجية اللغوية بشكل مختلف عن التعريف الذي قدمه فرغسون، إذ استنتج كون الازدواجية حالة لغوية تميل إلى التغير وليس إلى الثبات، وذلك لوجود تفاعل مستمر بين نمطين اثنين:

– نمط محدد وهو الدارجة، كون الطفل يتعلمها لغة أولى.

– الفصحى نظام لغوي غير محدد لكونها لا تكتسب لغة أولى، بل يتعلمها الطفل فيما بعد داخل المدرسة (إبراهيمي، ٢٠٠٣: ٥٢).

أما الخولي فإنه يعرف الازدواجية اللغوية بكونها حالة استخدام الفرد للهجتين من لغة واحدة، استخدام رسمي وغير رسمي، ولا يقصد بالرسمي هنا الحكومي، بل يدل مصطلح الرسمي على الاستخدام الرفيع للغة، بينما يحيل مصطلح غير الرسمي على الاستخدام الشخصي أو الشعبي للغة (الخولي، ٨٨: ٢٩).

وعادة ما يتحدث علماء الاجتماع ولاسيما فرغسون وتبعه في ذلك كريستل(93 :1985 ,Crystal)

ولاينز(248 :81 ; Lyons) عن استعمال نمطين لغويين: اللغة الرفيعة من جهة واللغة الوضيعة التي تعرف باللهجة الدارجة أو المحكية من جهة أخرى. والمراد بالأدنوية هنا الدرجة التي تحتلها اللغة في المقياس الاجتماعي للغة، وليس بمعناه السلبي. لهذا يؤكد كريستل بأن علماء الاجتماع بدورهم ينصون على اختلاف هذين النمطين اللغويين على مستوى درجة الرسمية. ويوظف فرغسون الجدول الآتي لنماذج بعض اللغات:(الفلاي، ١٩٩٦: ٢٠)

العربية: (ع) تسمى الكلاسيكية = الفصحى (س) تسمى العامية الدارجة

اليونانية: (ع) اليونانية وتسمى كتاريفوسا (Katharevusa) (س) تسمى ديموتيكي(Dhimotiki)

السويسرية الألمانية: (ع) الألمانية المعيار(Standard German) وهي لغة الكتابة عادة واللغة السويسرية.

الهايتيه: (ع) الفرنسية (س) الهجينه.

١-٢- دور الموقف اللغوي والمقام التخاطبي في تحديد نوع اللغة المستعملة

يذهب الباحثون في مجال السوسيولسانيات إلى كون النمط اللغوي الرفيع يتعلم في المدارس وفي جميع المؤسسات التعليمية وفي المسجد والكنيسة وفي البرامج الإذاعية والإخبارية والمخاطبات الرسمية. في حين يستعمل النمط اللغوي الأدنى في المحادثات غير الرسمية (الفلاي، ٩٦: ٣٠-٣١).

ويتقاطع لاينز مع ما تقدم حينما يذهب إلى كون علماء اللغة كثيرا ما يؤكدون بأن جميع اللغات متساوية (Lyons ;81:276). ويضيف لاينز أن من وجهة النظر التأريخية فإن اللغة المعيار تختلف في نوعها عن بقية اللغات غير المعيار المتفرعة عنها.

يستعمل المتحدثون من البالغين النمط اللغوي الأدنى عندما يخاطبون أطفالهم، كما أن الأطفال بدورهم يستعملون أيضا هذا النمط لمخاطبة بعضهم البعض. وعليه فإن الطفل المغربي حينما يبدأ عملية الاكتساب اللغوي، فإنه يستخدم النمط اللغوي الأدنى. ونتيجة لما تقدم فإن هذا النمط هو اللغة التي يكتسبها الأطفال بطريقة طبيعية، وعادة ما تكون لاواعية. وربما وهذا نادرا ما يحدث أن الأطفال يستعملون النمط اللغوي الأعلى من وقت لآخر. فمن خلال عمليات الرصد لخطابات الأطفال اليومية لم يشاهد أنهم يستعملون النمط اللغوي الرفيع أو الأعلى في حياتهم اليومية أو خارج المؤسسات التعليمية، بل يحدثون، وبشكل طبيعي، بعضهم البعض باستعمال النمط اللغوي الأدنى. وفي المقابل يتعلمون النمط اللغوي الرفيع بشكل حقيقي ورئيسي عن طريق وسيلة التعليم الرسمية كالمدارس الحكومية الحديثة أو مؤسسات التعليم الخاص. ويستتبع ذلك كون الفرد المغربي يستعمل في بيته اللغة الوضيعة بشكل كبير حتى أنه وعلى الأغلب لا يستعمل اللغة الرفيعة أبدا.كما أنه يكتشف أو يتعلم التركيب النحوي للنمط اللغوي الأدنى دون مناقشة المفاهيم النحوية وبدون مدرس، بينما يتعلم النحو الخاص باللغة الرفيعة من خلال القواعد عن طريق تقليدها وبمساعدة المدرس. ولهذا يوجد كثير من كتب النحو والقواميس والبحوث التي تنصب على دراسة خصائصها التركيبة والمعجمية وما شابههما.

تعكس الوظيفة كما سبقت الإشارة إلى ذلك مجالات استعمال الأشكال اللغوية، ذلك أن الأوضاع الاجتماعية والمناسبات التي تحتم استعمال النمط اللغوي الأعلى أو الرفيع تختلف عن تلك التي تفرض استعمال النمط اللغوي الأدنى أو الوضيع (الفلاي، ٩٦: ٢٢). ويتضح من خلال هذا التوصيف تقسيم وظائف اللغة إلى وضعين فقط، وضع رسمي يستدعي استخدام النمط اللغوي الرفيع، ووضع غير رسمي يفرض استعمال النمط اللغوي الوضيع. فإذا كانت الوظيفة أو الموقف اللغوي خاصية تحدد وضع النمطين الأعلى والأدنى. فما هي الاختلافات بين اللغة المعيار واللهجات المحلية؟.

١-٣- الاختلافات بين اللغة المعيار واللهجات المحلية "Local Dialects"

هنالك نقط تآلف واختلاف بين اللغة المعيار[١] وباقي اللهجات المحلية المتفرعة عنها، فنسقهما الصوتي مشترك إلى حد كبير. أما على المستوى النحوي فهناك اختلاف في القواعد النحوية بين اللغتين. فاللغة المعيار تحتوي على قواعد تركيبية ليست موجودة بالضرورة في اللهجات المحلية،كما أن النظام الصرفي للغة الرفيعة يحتوي على نظام تصريفي للأسماء وللأفعال الذي قليلا ما يوجد أو لا يوجد أبدا مثله في اللغة الوضيعة أو اللهجة. ويمتد الاختلاف إلى ترتيب الكلمات في سياق الجملة وكذلك في استعمال أدوات التقديم والتأخير والربط. أما بخصوص المعجم فإن اللغتين الرفيعة والوضيعة تمتلكان كما كافيا من المفردات الكافية لإشباع حاجات متكلمي اللغتين، ولكن ومن الطبيعي أن نرى وجود اختلاف في الشكل والاستعمال والمعنى لبعض المفردات التي تشترك فيها اللغتان معا.

يعتبر لاينز أن الاختلاف بين النمط اللغوي الرفيع والنمط اللغوي الوضيع أو الأدنى هو ليس

كالاختلاف بين لهجتين محليتين (Lyons, 81 :285). ففي أحيان كثيرة فإن طبقة المتعلمين فقط هي المؤهلة والقادرة تماما على استعمال النمطين معا. وعلى أي حال فإن تحديد استعمال نمط دون آخر من قبل أولئك الأشخاص الأكفاء لا تقرره الطبقة الاجتماعية أو المستوى الثقافي للفرد، ولكن تقرره الوضعية التي يجد الفرد نفسه فيها.

٢- يقصد بالمعيارية تدوين قواعد لغة ما عبر تحديد وتفسير ضوابطها اللغوية والاجتماعية، وكذا فرضها داخل المؤسسات التعليمية والإدارية. وبالتالي لا ترتبط معيرة اللغة بقيمتها بقدر ما ترتبط بوضعيتها الدستورية (Boucous ;95:24).

وبناء عليه، يذكر فرغسون أن اللغة الرفيعة يجب أن تحتوي على عبارات وتعابير معجمية لا يوجد مثيل لها في اللغة الوضيعة، وبالمقابل فإن هذه الأخيرة يجب أن تحتوي أيضا على عبارات وتعابير شعبية ومسميات لأشياء منزلية ولأخرى لها توزيعها المحلي الخاص، والتي لا يوجد لها مرادف في اللغة الرفيعة، ولا يمكن مناقشة مثل هذه المواضيع الشعبية باستعمال اللغة المعيار (242 ;72 Giglioli:). ومن أهم خصائص الازدواجية اللغوية وجود عبارات كثيرة بعضها تنتمي للغة الرفيعة وأخرى للغة الوضيعة. فعلى سبيل المثال إن اللغة العربية الفصحى تحتوي على عدد من هذه المفردات منها "مسك" ويقابلها بالدارجة المغربية "شد" و"رأى" وتقابلها المفردة "شاف". ويستتبع ذلك عدم توظيف المفردتين مسك ورأى في المحادثة اليومية بين الأفراد وكذلك عدم استعمال المفردتين شد وشاف مطلقا في العربية الرسمية.

١-٤- مفهوم اللغة المعيار

يمكننا أن نميز بين النمطين الأعلى والأدنى من ناحية الوظيفة المعيارية، إذ غالبا ما تكون اللغة الرفيعة نمطا لغويا أدبيا معياريا تمثله اللغة الكلاسيكية أو تقترب منه. إن كمية كبيرة من الأدب المكتوب تحظى بتقدير كبير من قبل المجتمع العربي، كما أن هذا المنتوج من الأدب العربي المعاصر المكتوب باللغة المعيار من قبل أفراد المجتمع هو جزء من الأدب المكتوب عموما. هذا الأخير إما أن تم إنتاجه في فترة زمنية قديمة تاريخيا واجتماعيا أو أنه عملية إنتاج مستمر في مجتمع آخر لغته المعيار ذات هيبة وهي اللغة الوحيدة المعتمدة. ففي الزمن المعاصر وفي حالات معينة ولأسباب ثقافية تعتبر اللغة الرفيعة هي الترجمة الصحيحة والخالصة للغة نفسها، هذا ما ينطبق على اللغة العربية الكلاسيكية. في هذا السياق يؤكد لاينز في نفس السياق أن أسبابا معينة سياسية أو اقتصادية أو ثقافية قد تجعل لغة ما معيارية أكثر من غيرها كما هو الحال بالنسبة للغة الإنجليزية والفرنسية المكتوبة مقارنة مع لغات أوربا الشرقية سابقا(Lyons ;81:277).

تميل اللغة في شكلها المكتوب إلى أن تكون أكثر معيارية عما تكون دارجة من قبل متكلمي تلك اللغة. فحينما يقال بأن شخصا ما يتكلم اللغة المعيار أو الفصحى، فهذا يعني أن اللغة التي يستعملها ذلك الشخص في المواقف الرسمية متطابقة في التراكيب النحوية وفي المفردات مع اللغة المكتوبة المعيار. وعليه فإن الازدواجية اللغوية ليست محددة برقعة جغرافية أو بعائلة لغوية معينة أو كون المجتمع متعلما أو غير متعلم، بل تظهر عندما تتوفر الشروط الثلاثة الآتية:

١. عندما يكون هناك كمية كبيرة من الأدب في لغة ما، ويكون هذا الأدب قريبا أو مطابقا للغة الجماعية الطبيعية، ويشمل أو يحتوي القيم الأساسية للمجتمع.
٢. عندما يكون التعلم في المجتمع مقتصرا على نخبة صغيرة.
٣. عندما تكون هنالك فترة مناسبة من الزمن ولقرون خلت وحسب ترتيبها تمر من النقطتين ١ و٢ أعلاه (الفلاي، ١٩٩٦: ٥٩ – ٦٠).

وبناء عليه، يبدو أن الازدواجية اللغوية مقبولة من قبل المجتمع، ولا تعتبر مشكلة، وتبقى قوية حتى ظهور توجهات معينة في المجتمع. وتتمثل هذه التوجهات كالآتي:

١ – الانتشار الواسع للتعليم.

٢ – الاتصال الواسع بين الشرائح الاجتماعية والمحلية في المجتمع لأسباب اقتصادية أو إدارية أو عسكرية أو إيديولوجية.

٣ – الرغبة في وجود لغة وطنية تتمتع بالاستقلال والسيادة.

وعلى ضوء ما تقدم، فإن أنصار اللغة الرفيعة يدعمون وبشكل كبير تبني هذا النوع كونه –حسب رأيهم – يربط المجتمع بتراثه التليد. ويعتبرونه عامل توحيد طبيعي يتعارض مع طبيعة اللهجات المحلية. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإنهم يقدمون أسبابا أخرى تعتمد على قيم ومعتقدات المجتمع، والتي تجسدها هذه اللغة في سموها وتفوقها لكونها أكثر جمالا وأكثر قابلية على التعبير وذات قانون

سماوي (علوش، ٨٧: ٥٨- ٥٩). أما أنصار اللغة الوضيعة فإنهم يؤكدون على كونها أقرب إلى الشعور والتفكير الحقيقي للأفراد حسب رأيهم، ويعتبرون هذا النمط اللغوي عاملا مساعدا في تسهيل العملية التعليمية (فريحة، ٦٦: ٩).

٢- وضع الفصحى داخل المشهد اللغوي بالعالم العربي:

يقيم بورديو علاقة جدلية بين اللغة والاقتصاد السياسي بغية تفسير اتجاه الأفراد إلى لغة معينة ومواقفهم من متكلمي تلك اللغة، حيث تعرض اللغات والثقافات المتواجدة في الساحة كبضاعة أو سلعة في سوق الممتلكات الرمزية. كما تشهد هذه الأخيرة رواج الممتلكات اللغوية ذات الحظوة على المستوى الاجتماعي، بمعنى أن هذه الممتلكات يتم تقويمها وترتيبها في إطار منافسة اجتماعية دائمة (Boukous ;95: 9)، وبذلك تصبح اللغة شكلا من أشكال الرأسمال الثقافي cultural capital الذي تسند إليه قيم معينة داخل المجتمع اللغوي (Freeman ; 1998: 10)، وإذا حاولنا تطبيق هذا التصور على السوق اللغوي العربي، نستنتج أنه يعرف تواجد لغات متعددة تستعمل لأغراض تواصلية ووظائف اجتماعية مختلفة، وهذه اللغات منها الوطنية، وتتمثل في العربية الفصحى بوصفها اللغة الرسمية لاغلب هذه الدول، واللهجات العربية بتقسيماتها اللهجية المختلفة، وايضا اللغات الأجنبية؛ وخاصة الفرنسية والأنجليزية اللتين أصبحتا حاضرتين في المشهد اللغوي العربي بعد الاستقلال. وهذا التعدد اللغوي واللسني يدفعنا إلى التساؤل عن طبيعة تعايش هذه اللغات واللهجات، أهو تعايش طبيعي وتكاملي أم تعايش سلبي؟. تختلف الإجابات عن مثل هذه الأسئلة باختلاف نوعية العلاقات الموجودة بين هذه اللغات وباختلاف المقاربات المستعملة لتحليلها. وسنوظف لتشخيص هذه الوضعية اللغوية مقاربتي كالفي ٨٧ calvet وبوكوس ٩٥ اللتين تحاولان إبراز العوامل التي تجعل لغة ما تكتسب وضعية معينة، مما يؤدي إلى تداخل ازدواجي لمجموعة من اللغات التي تدخل في صراع تنافسي.

٢-١- وضع العربية الفصحى تجاه اللهجات العربية

يسري تعريف فرغسون للازدواجية اللغوية على الازدواجية التي تربط بين الفصحى واللهجة، فهما معا تنتميان إلى أصل واحد، أي إلى نفس الأسرة اللغوية، ويتوزعان حسب وظائف سوسيولغوية متسمة بالتكامل والإقصاء. فاللغة العربية الفصحى تهيمن على المجالات الرسمية كالمجال الديني والمؤسسات التربوية والإدارية، ومن هنا فهي تكتسب طابع النمط اللغوي الرفيع. أما اللهجة العربية فهي لغة الاستعمال اليومي، خاصة في الوسط الأسري وبين الأصدقاء، كما تستعمل في مجال الآداب الشفوية، وتكتسب من خلال هذه الاستعمالات طابع النمط اللغوي الادنى، بالإضافة إلى اللغتين المذكورتين، لابد من الإشارة إلى بروز لغة عربية ثالثة وهي العربية الوسيطة التي هي باختزال شديد لغة تمتح خصائصها المعجمية من الفصحى، وخصائصها الصوتية والصرفية من الدارجة المغربية (Boukous ;95: 56). كما تمتاز بكونها لا تظهر الخصائص اللغوية المحلية التي تبرز في اللهجة. وتستعمل أساسا من طرف طبقة لها مستوى دراسي وثقافي معين، وذلك في المجالات الرسمية وشبه الرسمية(Boukous ;95: 35)) .

انطلاقا من الوظائف السوسيولغوية التي تقوم بها اللغات الثلاث المذكورة، ومن خلال وضعية متكلميها الثقافية، يمكن القول بكون العلائق الموجودة بينها قائمة على الصراع والمنافسة، فالفصحى لغة مهيمنة على اللهجة العربية والعربية الوسيطة. لكن إذا ربطنا هذا التصور بمجال تعليم اللغات وتعلمها نستخلص جازمين أن علاقة اللهجات العربية بالفصحى علاقة تكامل لا إقصاء لكونها تمثل جزء من الملكة اللغوية للمتعلم، أضف إلى ذلك وجود علاقة تكامل لغوي بينهما. يقول المصطفى الغربي في هذا السياق" ليس من السهل التحديد الدقيق للعلاقات بين اللهجة العربية والعربية الكلاسيكية، لأنه حينما يرى البعض وجود تشابهات جوهرية بين الاثنين، يلاحظ آخرون وجود اختلافات جوهرية، إلا أنه وراء وجهات النظر التي تهيمن عليها الاديولوجيا يمكن أن نسجل بهذا الصدد الملاحظات التالية:

- إن خبرة اللهجة العربية يتم توظيفها في تطوير الملكة اللغوية عند الطفل الذي يتعلم اللغة العربية الفصحى، كما أن النقل المعجمي والصواتي والتركيبي يجد تحققات عديدة دالة ومثمرة". (الغربي، ٩٤: ٢٠).

٢-٣- وضع اللغة العربية الفصحى تجاه اللغات

لا تنتمي الفرنسية والأنجليزية والفصحى إلى نفس العائلة اللغوية (Boukous ;95: 57)، فالأولى تدرج ضمن عائلة اللغات الهندوأروبية والثانية تنتمي إلى عائلة اللغات السامية، كما لا يمكن أن تخضع مبدئيا للتمييز الذي أقامه فرغسون بين الأنماط اللغوية الرفيعة والأنماط اللغوية الدنيا.

أما عندما ننظر إلى وضعية اللغتين من الناحية الدستورية، فإننا نجد أن وضعيتهما مختلفة اختلافا بينا، فرغم أن الفصحى هي اللغة الرسمية، فإن وضعها سيراجع، خاصة إذا عرفنا بأنها تتعرض لمنافسة قوية من طرف اللغتين الفرنسية والأنجليزية؛ إذ من الناحية القانونية ليس لهما أي وضع رسمي، ولكنهما عمليا ووظيفيا تحتلان مكانة هامة داخل السوق اللغوي العربي. ولا أدل على ذلك أنهما أضحتا لغتان شبه رسميتين، إن لم تكونا هما اللغتان الرسميتان على مستوى الممارسة (الفاسي الفهري، ٢٠٠٦: ١٢٣). ويعزى سبب ذلك إلى كون الفرنسية والانجليزية قد اكتسبتا قيمة رمزية كبيرة لدرجة أصبحتا رمز النجاح في الحياة العملية بالرغم من أنهما لغتا الاستعمار القديم من جهة، وبالرغم من أن العربية أصبحت لغة البلاد الرسمية (فرستيغ، ٢٠٠٣: ٢٣٥- ٢٣٦).كما أضحت لغة وظيفية، حيث عبرها يتم ولوج بوابة المعارف التقنية والتكنولوجية والعلمية (El Gherbi ;93: 25).

بالنظر، إذا، إلى هذه المكانة التي تحتلها اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية داخل السوق اللغوي العربي، يمكن أن نقول بأنهما لغتان رفيعتان مقارنة بالفصحى(Boukous ;95: ٥٨). ويعزى السبب في ذلك حسب الأستاذ الصوري إلى كون اللغة الفرنسية لم يصبها أي انحسار، بل نجدها متجذرة عن طريق التعليم وأجهزة الإعلام، أما العربية فقد استمرت في أداء رسالتها التراثية رغم تعريب بعض المواد الاجتماعية (الصوري، ٢٠٠٤: ١٨٨).

٢-٤- وضع الفصحى في إطار العملية التعليمية التعلمية

منذ اليوم الذي يدخل فيه الطفل العربي المدرسة، يشرع في مواجهة وضعية الازدواجية والتعدد اللغوي، إلا أن اللغة العربية ليست غريبة عنه بالمعنى الحقيقي، فهي لغة المسجد والإدارة والإعلام، وأكثر من هذا فهي لغة المدرسة ولغة السلطة. إضافة إلى وجود قواسم مشتركة بينها وبين اللهجات العربية. لذا فالازدواجية الحادثة من تمدرس الأطفال تتوافق والازدواجية غير المتوازنة، حيث اللغة الأولى تسيطر على الوضع طول الحياة ما قبل المدرسية والمدرسية. فهذا الطفل الذي يخضع إلى ظاهرة الازدواجية (فصحى / دارجة) قبل أن يكتسب لغته كاملة، فإن لغة جديدة تضاف ابتداء من السنة الثانية من التعليم الابتدائي إلى المنهاج التعليمي، مما يفرض علية مجابهة وضعية الثنائية اللغوية دون أن يكتسب أيا منهما اكتسابا طبيعيا. وهذا الوضع يقودنا إلى طرح التساؤل التالي: ما هو وضع الفصحى بالنسبة للمتعلم العربي ؟.

لمقاربة التساؤل السابق، ينطلق بعض الباحثين من مسلمة مفادها أن اللغة الفصحى لا وضع لها بالمعنى العلمي للكلمة (جحفة وشوطا، ٢٠٠٩: 27)، لأن وضع اللغة الثانية تحتله الفرنسية والانجليزية، من تم فهي حسب هذا التصور لغة بين الأولى والثانية لاعتبارات نستعرضها على الشكل التالي:

- اللغة الفصحى تصنف لغة بين الأولى والثانية، لأن المتعلم العربي لا يكتسبها كلها في محدداتها النفسية والإدراكية، كما أنه لا يتعلمها بنفس المعنى الذي تتعلم به اللغة الأجنبية (إبراهيمي، ٢٠٠٣: ١٥٩).
- يقوم المتعلم العربي خلال فترة التمدرس وفي فترة لاحقة بتحويل عدد من الضوابط والقواعد من العامية إلى الفصحى، بحيث يلجأ إلى ملء الخانات أو الثغرات في النسق الفصيح بضوابط لم يتعلمها، وهذه الضوابط تأتي إما من برامترات العامية وإما من النسق الكلي (الفاسي الفهري، ٨٦: ٢١) .

ولكن هذا الطرح الذي يذهب إلى كون الفصحى لغة بين الأولى والثانية يصطدم بمجموعة من المشاكل البيداغوجية والديداكتيكية، منها أن كل متعلمي اللغة الثانية يعمدون إلى ملء الخانات الفارغة بأنساق لغتهم الأم، مما يحملنا على اعتبار اللغة الفصحى لغة ثانية للاعتبارات التالية:

- تكتسب اللغة الأولى / اللهجة العربية بطريقة طبيعية لا واعية، حيث يكتسبها الطفل انطلاقا من محيطه اللغوي، واحتكاكه بمجتمعه اللغوي " Speech community" الذي يتكلم تلك اللغة بالفطرة.
- يعتمد في تعليم وتعلم اللغة الفصحى على التعليم الموجه "Guided learning" الذي يتطلب عادة استحضار القواعد اللغوية والاعتماد على النحو الصريح لا الضمني (Krashen And Terrell, 83: 26)).
- اللغة الأولى تتميز بكونها لغة لخلق الذات داخل المجتمع creation of self in society ، حيث عبرها يتم خلق وتكوين للعالم الأول عبر تشكيل جملة من الإحالات لفهم الواقع، أما اللغة الثانية فعكس ذلك يتم تعلمها لتحقيق أغراض معينة مرتبطة بالمتعلم، إنها لا تتصل بالحياة اليومية، لأننا نكون بواسطة اللغة الأم تمثلاتنا الأولى عن الواقع.
- إن المعرفة التي نتعلمها عبر اللغة الأم طبيعية، أما المعرفة التي نتعلمها عبر اللغة الثانية لا تكتسي هذه الصفة) Ruquia And (Perrett; 99: 198).

٢-٥- أثر الازدواجية اللغوية على المتعلم العربي

إن الطفل العربي عندما يدخل المدرسة يكون قد استخدم لغته من قبل من خلال مختلف الوظائف التواصلية والعاطفية ثم تدريجيا الوظيفة المعرفية. فإذا كانت هذه الوظائف المعرفية قد نمت نسبيا نموا ناقصا وأن المدرسة تستثير الطفل على تنميتها وتطويرها من خلال لغة أخرى، فإن ذلك يحدث نوعا من الانقطاع المجحف لنموه المعرفي. وعكس ذلك إذا كان الطفل قد دخل المدرسة بنمو لغوي تام في اللغة الأولى، وأن هذه الأخيرة مقيمة ومعتبرة في كل من العائلة والمدرسة، فلن تكون لديه عقبات لاكتساب لغة ثانية في المدرسة. ومن هنا أكدنا فيما سبق على ضرورة إلحاق الطفل بالتعليم ما قبل المدرسي من أجل تحضيره لتعلم اللغة العربية الفصحى بشكل سليم. أما أن يدخل التلميذ المغربي إلى المدرسة وقد أتقن الدارجة في سن القدرة اللغوية الهائلة للدماغ على اكتساب اللغات، أي أنه تزود باللغة التي يفترض أن يكتسب بها المعارف المختلفة وذلك بحسب طبيعته وتكوينه، ثم يفاجأ بأن لغة المعرفة ليست اللغة التي تزود بها، وإنما هي لغة أخرى لا بد له أن يتعلمها ويتقنها لكي يتمكن من فهم المواد المعرفية الأخرى. فإن لهذا الوضع الشاذ انعكاسات سلبيه على نموه اللغوي والمعرفي، من نتائجه وقوع المتعلم المغربي في أسوأ وضع يمكن أن يكون فيه متعلم، وهو وضع غير طبيعي، لأنه يكون قد بدأ يفقد القدرة الدماغية الهائلة على تعلم اللغات، ولذا لا بد أن يتعلم المعرفة بهذه اللغة التي لم يتقنها بعد. وإذا قارنا وضعه بوضع التلميذ الفرنسي مثلا نجد أن التلميذ العربي عامة عليه أن يتعلم المعرفة ولغة المعرفة في آن واحد، ويزيد الأمر سوءا أن لغة التواصل العادي ولغة شرح المواد العلمية جميعها تتم باللهجة العربية، وأن المتعلم لا يمارس الفصحى إلا عندما يقرأ أو يكتب. أما المدرس فليس في وضع أفضل إطلاقا، لأنه يشرح المادة التعليمية بالدارجة لعدم إتقانه الشرح بالفصحى من جهة، ولكي يضمن فهم المتعلمين لهذه المادة من جهة أخرى. وأما المتعلم فيطلب منه الرجوع إلى الكتاب المكتوب بالفصحى، وأن ينجز الامتحانات بها أيضا. وتكون النتيجة أن يظل المدرس يشكو من عدم فهم متعلميه ومن ضعف أدائهم المعرفي اللغوي، وأن يظل المتعلمون يشكون من صعوبة اللغة العربية وفهم المواد الأخرى المكتوبة بهذه اللغة. لهذا نرى أنه من الضروري أن ينطلق النظام التربوي من فكرة العدالة في التعليم، وذلك بإعطاء الفرص المناسبة لكل طفل في أن يتعلم لغة المدرسة حسب الظروف التي يعيش فيها وحسب إمكانياته الخاصة، مع تخصيص المدرس الكفء في المناطق التي تتطلب دراية كبيرة بمشكلات تعليم اللغات وتعلمها، خاصة إذا كانت لغة المدرسة تختلف نسبيا عن اللغة الأولى للطفل.

المراجع

أولا: باللغة العربية

- إبراهيمي، أمينة (٢٠٠٣)، التخطيط اللغوي ووضع اللغة العربية بالمغرب، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب من شعبة اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. اللغوية بالمغرب ، مجلة آفاق العدد ٧٠ – ٧١ مارس ٢٠٠٦.
- جحفة عبد المجيد وشوطا عبد اللطيف (٩٢)، تحويل القدرة من المغربية إلى العربية ضمن كتاب قضايا في اللسانيات العربية منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك البيضاء
- الخولي، محمد علي (88)، الحياة مع لغتين، جامعة الملك سعود الرياض المملكة العربية السعودية.
- شوطا، عبد اللطيف ٢٠٠٦ ملاحظات أولية حول الوضع اللغوي بالمغرب مجلة آفاق العدد ٧٠–٧١ مجلة آفاق العدد ٧٠ – ٧١ مارس ٢٠٠٦. ص ص ١٥٥– ١٦٣.
- الصوري، عباس (٩٤)، في بيداغوجية اللغة العربية: البحث في الاصول، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء.
- علوش، جميل(٨٧)، الفصحى والعامية والصراع على مناطق النفوذ، مجلة الوحدة، المجلس الأعلى للثقافة الرباط ص ص ٧٤– ٨٤.
- الغربي المصطفى (٩٤)، الفرنكفونية وتدريس اللغات الأجنبية في المغرب، ترجمة وتقديم محمد أسليم، مطبعة سندي، مكناس.
- الفاسي، الفهري عبد القادر، (٨٦) ، المعجم العربي، دار توبقال للنشر البيضاء.
- الفاسي، الفهري عبد القادر (٢٠٠٦)، التعدد اللغوي يجب أن يكون مغنيا لا مفقرا ، مجلة آفاق العدد ٧٠ – ٧١ مارس ٢٠٠٦.
- فرستيغ، كيس (٢٠٠٣)، اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها ، ترجمة محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة.
- فريحة أنيس، نظريات في اللغة ، دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان.

ثانيا: باللغات الأجنبية

- Boukous ; A; 1995; Societe; Langues Et Cultures Au Maroc
- Calvet.L-J ; 1987; La guerre des langes. Paris.Payot ..
- Chambers ; J . K and Trudgill ; P ; 1998 ; dialectology ; Cambridge university press second edition.
- El gherbi;E- M; 1993; Aménagement Linguistique et enseignement du Français au Maroc; Imprimerie La Voix de Meknès; Meknès.
- Freeman; R; 1998; Bilingual education and social change ; Multilingual Matters LtD Philadelphia U S A .
- Giglioli; P.P; 1972; Language and Social Context; Harmondsworth: Penguin.
- Grosjean ; F; 1982 ; Live with Two Languages; Harvard university press ; Cambridge M A ..
- Krashen , S And Terrell , T, 83, The natural approach , Prentice hall Europe 1995..
- Lyons; J; 1981, Language and Linguistics; Cambridge: Cambridge University Press
- Ruquia ; H and Perrett ; G ;1994; Learning to Function with the other tongue; in Perspectives on pedagogical grammar edited by Odlin Terence ; Cambridge university press .